

٣- المهاجرون

إن اكتشاف العالم الجديد وتقدم الملاحة البحرية قد زاد من الهجرات وضاعف المهاجرين . وتتميز الهجرة عما سواها من الحركات بأنها سلمية ، وهي استجابة للدافع الرغبة في تحسين الأحوال الاقتصادية (١) والظروف الاجتماعية ، وغالباً ما يكون للأفلام الجديد « جاذبية » اقتصادية واجتماعية . وكما عظم درجة التشابه ، الاندماج زاد الميل إلى التمازج الداخلي . ويحق المهاجرون في مهجرهم مشكلات اقتصادية وسياسية ودينية ، الأمر الذي دعا الولايات المتحدة الأمريكية إلى تقييد قوانين الهجرة فقسمت المهاجرين إلى ثلاث طبقات : المرغوب فيهم بلا قيد ولا شرط مثل سكان غرب أوروبا ، والمرغوب فيهم بشروط مثل سكان بقية أوروبا ، وغير المرغوب فيهم وهم العناصر الصفراء ، كما حددت لكل دولة عدداً سنوياً من المهاجرين . ولا ينبغي أن ننكر ما للمهاجرين من فوائد (٢) . فقد نقل المهاجرون إلى أمريكا - مع ما نقلوا - الأفكار الديمقراطية والتسامح الديني وحب الحرية ، فكانوا عوامل فعالة في النزاع بين المستعمرات ثم في الكفاح لنشر فلسفة الثورة الأمريكية بين الطبقات (٣) وكما ينقل المهاجرون معهم محاسنهم كذلك ينقلون مساوئهم .

واللبنانيون أكثر أهل الشرق حباً للهجرة ورغبة في المغامرة ، ولهم جاليات نشيطة في الأمريكتين ، وأصل لأطوار الجغرافية أترأ في ذلك . ويحدث أحياناً أن يعيش للمهاجرون في عزلة عن السكان الأصليين فيقوى عندهم الميل إلى الاحتفاظ باللغة والدين والتقاليد ، ويرفضون الزواج مع السكان . وهذا بطبيعة الحال يضعف من احتكاك الحضارات (٤) . ولكن بعد مرور فترة من الزمن ترى المهاجرين ينجحون إلى الاختلاط وينبذون حياة العزلة .

الاحتكاك الثانوي :

لا شك أن سهولة المواصلات والمخترعات الحديثة أثرا كبيراً في احتكاك الحضارات . فقد نتج عن ذلك مثلاً إمكان « التعليم

احتكاك الحضارات

للاستاذ محمد محمد علي

بقية ما نشر في العدد الماضي

الطرق غير المنظم

تنتشر الحضارات بين الجماعات البدائية بطريق الاحتكاك الابتدائي أو الأساسي ، ولكنها تنتشر بين الحضارين بطريق الاحتكاك الثانوي والأساسي أيضاً (١)

الاحتكاك الأساسي : ويتمثل في حركات السياح والرحالة والمهاجرين والحوالين .

١ - السياح

وهم يهبون عما أطلق عليه تومس الرغبة في تجديد التجربة ، لا أنهم من طائفة عليا - وتتلخص أهمالهم في زيارة الأماكن ذات الشهرة الواسعة ولا سيما الآثار المصرية القديمة . ويتحدثون إلى الناس ويترقبون على أحوالهم ويدرسون حياتهم في مختلف نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، ثم يعودون إلى أوطانهم بنظرة إلى الحياة جديدة وأفكار حديثة فيؤثر ذلك في التقاليد والنظم المختلفة . وقد كان للسياح أثر عظيم في احتكاك الحضارات وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ - الرحالة

هناك حركة من جزء إلى آخر في نفس الإقليم ، كحركة الفلاح الأمريكي من شرق الولايات المتحدة إلى غربها ، وهي تحدث أزمة في الحياة الشخصية إذ تولد رغبة في تغيير النظم والمعدات . وهناك تنقلات من الريف إلى المدن وهذه آخذة في الزيادة حتى أن أكثر من نصف سكان الولايات المتحدة يعيشون في المدن ، وكذلك الحال في كثير من البلدان الصناعية . فالمدينة عبارة عن بوتقة تنصهر فيها الآراء وتختلط العناصر .

1, Davie : World Immigration, 1936, p. 5.

2, Duncan, p. p. 184-186.

3, Davie : p 40

4, Ibid p 39

Duncan, p.p. 176, 177, (١)

١ - اختلاط وامتزاج بين الحضارة الأصلية والحضارة الجديدة ونشوء حضارة حديثة . مثال ذلك ما كان يحدث في مصر بعد الغزوات المختلفة التي كانت مصر سرية في هضمها . وما حدث في أمريكا في المصور الحديثة .

٢ - ثلاثى الحضارة الأصلية وذلك في المجتمعات البدائية بسبب الانقلابات التي يحدثها المتحضرون .

٣ - أن تقتبس الحضارة الأصلية من الحضارة الجديدة ما يلائمها وهذا خير المواقف في احتكاك الحضارات . وحسبذا لو كانت مصر فعلت ذلك لزاء احتكاكها بالحضارة الغربية . ولكن هل في استطلاع الأمة أن تقوم بذلك ؟

٤ - المقاومة : وهذه قد تكون إيجابية أى ثورة على الجديد . أو سلبية وفي ذلك إبقاء على مقومات الحضارة الأصلية ، مثال ذلك ما فعله المصريون بعد غزوة الهكسوس وغزوة الفرس ، إذ أنهم أنقوا من تقليد الغزاة . ويحدث هذا بسبب المداء بين الطرفين أو في حالة الغرض بالقوة . لكن مصر لم تستطع أن تعتمد أمام القوة بعد الفتح التركي في القرن السادس عشر ، ففرضت عليهم الحضارة الجديدة ، وضاعت بذلك شخصية مصر حتى ظهر محمد على الكبير .

أما : الحضارة الإسلامية (١)

ضرب الإسلام بجرانه وانتشر المسلمون في بقاع الأرض ، ودخل الإسلام أمم كثيرة من أجناس مختلفة وعناصر متباينة . فكانت ساحة الامبراطورية الإسلامية في العصر العباسي الأول وعاء تصهر فيه العناصر وتتفاعل فيه الأجسام . هذه الأمم تختلف في الصفات الجثمانية وفي الأهواء السياسية والميول الاجتماعية . وكما يحدث تراوج واختلاط بين الأجناس ، كذلك يحدث امتزاج بين الثقافات واحتكاك بين الحضارات ، فنمت الحضارة الإسلامية على أساس العلم الواسع بكافة شئون الحياة من طب وهندسة وجغرافية ونظام حكم وأدب لغة .. كانت هنالك أربع حضارات : الفارسية والهندية والإغريقية والعربية . وكانت كل ثقافة في أول

بالرسالة « الذى ظهر حديثا . كما لعبت الصحافة والإذاعة دوراً عظيماً في هذا المضمار . وللأدب أهمية كبيرة ، إذ أن الانسان لا يتعلم لغة قوم إلا إذا أخذ فكرة عن حضارة هؤلاء القوم (١) وفي المصور الوسطى أثرت الأدب العربية في عقول أهل أوروبا وأفكارهم ، فكان لذلك أكبر الأثر في نهضة أوروبا الحديثة .

واللغة الإنجليزية أكثر اللغات انتشاراً . فقد قدر أحد العلماء في عام ١٩١٠ عدد المتكلمين بالإنجليزية بنحو ٢٧٪ من سكان هذا الكوكب (٢) ، واكثر من نصف جرائد العالم تنطق بها . ولا اخترت أوروبا البخار سهل السفر في قطارات البر وسفن البحر وزاد اختلاط الفرج بالشرق . ولا تقتصر فوائد المخترعات على المنطقة التي اخترعت فيها بل إنها تم بقاء العالم : ومن أم ما استفادت منه الإنسانية المكتشفات الحديثة في الطب . وكما أفضل الغرب على الناس أجمعين بمطعموم الجدرى وكان يهلك به أطفال كثيرون (٣) . وكما من حدود جميلة بينوره نشووت

نتائج الاحتكاك

ينتج عن احتكاك الحضارات نوع من التفاعل ، فليست المسألة استعارة ، بل هنالك ظاهرة ديناميكية .. غليان ثورة ... نحننا ينتقل تيار حضارى إلى مجتمع من المجتمعات ، فلا بد من أن يواجه مقاومة في أول الأمر . وتعتمد هذه المقاومة اعتماداً كبيراً على عاملين (٤) : طبيعة المجتمع ، ومظاهر الحضارة الجديدة . فبقدر رقى المجتمع تكبر مقاومة المؤثرات الجديدة ، وهى قليلة في المجتمعات البدائية . ويلاحظ أن النواحي الروحية من الحضارة تلاقى مقاومة أكثر من النواحي المادية . لأن الإنسان سريع في اقتباس وتقليد النواحي المادية (٥) . على أن المظاهر الجديدة يسهل اقتباسها إذا كان هنالك ما يستدعى الاقتباس وتغيير الماديات ويمكن تلخيص نتائج احتكاك الحضارات فيما يأتى : (٦)

١ - هنا رأى الأستاذ دكن . ويمكن القول بوجه عام إن الإنسان يتعلم لغة قوم يستطيع أن يعرف شيئاً عن حضارتهم أى أن اللغة مفتاح لمعرفة شيء عن الحضارة . ولأن الأطفال يتعلمون اللغة الأجنبية ولا يعرفون شيئاً عن حضارتها 2 Durcan p 166

٢ - كرد على : صفحة ٣٥٣ - ٣٥٠

4 D Forde : Habitat Economy and Society 1942 p 46

5 Notes and queries on Anthropology 1929 p 36

و منشورات الجمعية البريطانية لتقديم العلوم

Man6 magazine 1935 No 162 p 140

١ - دكتور احمد أمين بك : ضمن الإسلام : الجزء الأول (١٩٣٨)

س ١٩٦٩ و ١٩٧١ و ٢٤٠ و ٣١٤

ماسة إلى الخيام والملابس . وفي أثناء الحرب العظيمى الأولى امتنعت
الوارد الأوربية فلم يجد الأهالى مندوحة عن الرجوع إلى الأساليب
الأولى فى حياتهم . وقد لاقوا صعوبات من جراء ذىابهم عادتهم .
ومن أسوأ نتائج الاحتكاك بين الأوربيين والاسكيمو : انتشار
الأمراض والأوبئة . ففي منتصف القرن الثامن عشر هلك من
الجدرى عدد كبير ، هذا فضلا عن انتشار مرض السل . وليس
أدل على فداحة خطر الأوربيين من القصر الرابع فى عدد السكان .
وامد شمر الأوربيون بحطرم ، فأسرعت الداعرك إلى علق موانئ
جرينلند فى وجه البواخر الأوربية لسنوات ممدودات . إذن
فاحتكاك الاسكيمو بالأوربيين لم يكن فى صالحهم . واقد قل جرينفول
إن إسكيمو لبرادر فى طريق الغناء . وقد بدأت حكومة كندا
تولى الأهالى هناك عناية واهتماما إلا أنه بشك فى تعمير الاسكيمو
إلى زمن طويل .

زنجوج الباتو بمجنوب أفريقيا (١)

كان للبشرىن كبير الفضل فى الاحتكاك بين الأوربيين
وزنجوج جنوب إفريقيا ، إذ عملوا على إدخال المسيحية على أساس
القضاء على الوثنية ، وتبع البشرىن التجار وأصحاب الحرف . وقد
انقسم الأهالى حيال الحضارة الأوربية إلى ثلاثة أقسام : فريق
بقى على حاله الأولى فى مستوى الحضارة الأصلية ، وفريق آخر
غالى فى الاقتباس والتقليد . وبينهما فريق ثالث آثر أن يمشى وسطا
ياخذ من كل ما يشاء . وتتلخص نتائج الاحتكاك فيما بلى :

النتائج الاقتصادية

- ١ - تحسنت الأحوال وارتفع مستوى معيشة الفرد .
- ٢ - سهلت عملية الصيد بسبب وجود البنادق التى جلبها التجار .
- ٣ - حدوث التبادل بين الأهالى والتجار . يأتى التجار
بالبضائع الأوربية ويبيع الأهالى منتجاتهم التى درت عليهم
رزقا كريما .
- ٤ - ظهور صناعات جديدة ، فانتشرت ماكينات الخياطة
تعمل عليها النساء فى المنازل .

(١) تلخيص للفصل الثانى من :

الأمر شق انفسها جدولا خاصا له طعمه ولونه ثم تلبث أن التقت
جميعا وكونت نهرا عظيما . وقد التقت فى هذا الميدان الرحيب
الأديان الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام . واختلف الناس
فمنهم من يرد جدولا مميذا ومنهم من ينهل من أكثر من جدول .
وقد عمل امتزاج الثقافات بأجلى معانيه فى ثلاثة أعلام : الجاحظ ،
وابن قتيبة وأبو حنيفة الدينورى . كان للحضارة الفارسية الفضل
فى إنشاء منصب الوزارة وكان غالبا يستند إلى الفرس ، ولم يكن
ممرورفا قبل العباسيين . وتمثلت العادات الفارسية فى النفوس
مثل عيد النيروز ولبس القنأسوة وجماس الله - والغناء . وقد
لاحظ ابن خلدون أن حلة العلم فى الدولة الإسلامية كان أكثرهم
من المعجم لأن العلوم من الصناعات وهى من حصائص الحضرة .
ومن هؤلاء سيديبه وأبو حنيفة النيمان وبخارىن برد والكسائى
والفراء وغيرهم . أما تأثير الحضارة الهندية فكان فى شيوخ الإلهيات
(المقالات الدينية) والرياضيات والنجوم والقصاص والحكم .
ويذهب كثير من الباحثين إلى أن الهندوم واضعوا الشطرنج
ومنهم أخذ السلون وانتشر فى العالم . أما عن الحضارة اليونانية
فقد كانت هناك مدارس ومراكز ثقافية أشهرها فى الإسكندرية
وحران . وقد نقل الكثير من فلسفة اليونان وعلومهم فى الفلسفة
والطب والمنطق . وامل أهم ما نتج عن احتكاك الحضارات ما أخذه
الخلفاء من مظاهر الأبهة ودلائل النعيم فى قصورهم ، فكان الخليفة
لا يقل عظمة من قيصر الروم أو ملك الفرس .

الاسكيمو (١)

حدث الاحتكاك بين الأوربيين والاسكيمو فى شمال أمريكا
الشمالية عن طريق سيادى الحيوانات ذات الفراء . وأقبل
التجار ، فباعوا للأهالى أسلحة حديثة أحسن من تلك القديمة
فأدى ذلك إلى نقص فى الكاربو فى جرينلند ودلتا نهرا كترى
لكثرة الصيد مما أثر فى غذاء الأهالى . وقد آتى الأوربيون
بالكاليات مثل الشاى والسكر والطباق والصابون - فضلا عن
الأسلحة . ولكى يحصل الأهالى على هذه الأشياء . أصبح لزاما
عليهم أن يبيعوا الجلود اللازمة لهم فى حياتهم وأصبحت الحاجة

٦ - أخذ الأهالي طارفاً جديدة في المحافظة على حيواناتهم والعتايا بها وأصبح الحفن واجبا .
التأليف : د. محمد عيسى

- ١ - انتشرت اللغة الإنجليزية وذلك عن طريق التعليم .
 - ٢ - تفككت روابط الأسرة بسبب تنقل الأهالي وراء الصناعة ، وكثيرا ما كانت الزوجة تسام طول انتظار زوجها فتتخذ لها خليلا .
 - ٣ - استنشق الشبان نسيم الحرية مما أودى بالسلطة الأبوية فانغمسوا في اللهو وركبوا خيول المجون ، وتأنقوا لجذب أنظار المذاري اللاتي يقعن في شباك الإغراء غالبا .
 - ٤ - تغير موقف القبيلة إزاء الفتيات إذ كانت المذراء التي تحمل تلاقى عقوبات شديدة وتذوق ألوان الاضطهاد ، وكان الأطفال غير الشرعيين يقتلون . أما الآن فإن هؤلاء المذاري (اللاتي يحملن) توجه إليهن هتاية ؛ وكذلك أطعاهن لهم الحق في الحياة الطبيعية ولو أن لدائهم بغيرهم . وأصبحت هذه الأمور تقع كأنها أمور عادية لا غرابة فيها .
 - ٥ - لم يعد هناك احترام للتقاليد ، وأصبح للشباب من الجنسين حرية الاختيار في الزواج .
- الشرق والغرب (١)

كان الاسكندر الأكبر وحروبه فضل كبير في اختلاط الشرق والغرب . وعندما انتقلت الآداب العربية إلى أوروبا في المصور الوسطى أثرت في نهضة الآداب والفنون خصوصا بعد أن وصل المسلمون إلى جبال البرانس . أي أن الشرقيين أخذوا من الشرقيين ما نفهمهم يوم نهضتهم . وزاد الاختلاط شدة سهولة المواصلات وانتشار الحضارات وهجرات الشرقيين خصوصا أهل الشام إلى العالم الجديد . وقد استفاد الشرق كثيرا من الغرب في المصور الحديثة إذ تعلم الشرقيون : معنى الوطن والوطنية وحب الجنس والقومية ، ونقلوا بعض الأوضاع الاجتماعية والسياسية . وأخذوا أصول الصحافة التي كان لها أثر عظيم في إدخال الأفكار الجديدة وتبديلها من النظم القديمة . وتجلي أثر ذلك واضحا في تنوير ذهان الشرقيين ونورهم على الاستمرار في السنين الأخيرة وذلك

١ - تلخيص من كتاب الأستاذ محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية : الجزء الأول .

لانتشار الآراء الثورية .

وكان احتكاك المصريين بالفرنسيين في القرن الثامن عشر أول احتكاك علمي مع الفرنجة . وعمن كانوا طليعة المستفيدين مؤرخ مصر في ذلك الحين الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وشيخ الأزهر حينئذ الشيخ حسن المطار ؛ إذ علموا بعض علماء الحملة الفرنسية اللغة العربية وتعلموا منهم ما لم يكن لهم به عهد من العلوم الساذية . وقد أبدع الجبرتي - في تاريخه - في التعبير عن شعور الشرقيين تجاه هذه العلوم ، وقام فريق من علماء الحملة بدراسة مصر من كافة نواحيها . ويعتبر كتاب «وصف مصر» أوفى دراسة وأحسن مرجع للحياة المصرية في ذلك الحين . ولما تولى محمد علي الكبير حكم مصر أوحى إليه ذكاؤه أن الانزاع مبعث التأخر فأبقى على التعليم في الأزهر وأدخل التعليم الحديث وأرسل في استدعاء الأساتذة والأطباء ، بيد أنه رغب في الاستغناء عن الأجانب والأخذ عن الغرب مباشرة فأوفد البعثات العلمية إلى إيطاليا ثم فرنسا وإنجلترا وألمانيا وغيرها . وقد نهج محمد علي خطة حميدة وهي الأخذ بمحاسن الغرب مع الإبقاء على تراث الشرق بل إحيائه . على أن احتكاك الشرق بالغرب قد جلب الكثير من المساوي منها انتشار المسكرات وفتح أبواب الفجور والاستخفاف بأمور الدين .

خاتمة :

بعد دراسة احتكاك الحضارات وعرض أمثلة له ، يمكن القول بوجه عام إنه ليس في مقدور أمة أن تعيش بمزلة عن سائر الأمم فلا بد من التأثير والتأثر . ومما هو جدير بالذكر أن للاحتكاك مساوئه ومحاسنه إلا أن الأمة الحريصة هي التي تستفيد من تحارب غيرها ، وتعمل على أن تتخلص مما طرأ عليها من أضرار وشرور نتيجة احتكاك الحضارات .

وقد نتج عن ذلك - نتيجة ما اتصف به الإنسان من الهجرة والتقليد كما ذكرنا في بداية هذا البحث - أنه لم تدم هناك حدود فاصلة بين الأجناس البشرية ، لذا قيل بحق : إن الجغرافيا الجنسية لا تملك الحدود . ويظهر ذلك بجملة في اختلاط العناصر وامتزاج النساء في ربوع وادي النيل .

محمد محمد علي

(لسانه في الآداب)